

---

## الفصل الثامن

### الإبداع في الطفولة المبكرة فطرة وخبرة



## مدخل :

الطفولة المبكرة تتفرد خاصة بأنها الفترة الغنية بإمكانات الإبداع ومصادره التي تتضح في طائفة من المعالم مما تتميز به سنوات ما قبل المدرسة، ومن أبرزها نزعة الطفل إلى الاستكشاف والشغف والاستطلاع، والاختبار والتقيب والبحث والتجريب، والدهشة والاستغراب، والتخمين، وكثرة الأسئلة، والخيال، والإيهام ولعب الادعاء، والحركة، وتناول الأشياء، وغير ذلك مما يعبر عن ركن أساسي من أركان الطفولة في هذه المرحلة، بل هي الطفولة في فطرتها وأصالتها، وفي تفردتها عن المراحل النمائية الأخرى من مدى حياة الإنسان.

لهذا، تُعتبر مرحلة الطفولة المبكرة، كما يذهب تورانس، هي الفترة المثلى لما يسميه بالتعلم الإبداعي ؛ فهذه الاستعدادات الطبيعية الكامنة فطرةً في الطفولة المبكرة وما تكتنزه من مصادر الإبداع في الطفل والإنسان هي موضوع التعلم وخبرة التعلم، وبالتالي هي منجزات النمو وعائد التعلم في سنوات ما قبل المدرسة. إن تصميم برامج التمدرس المبكر في رياض الأطفال يعتمد هكذا على منحى نمائي وإبداعي لتعليم الأطفال في سنوات ما قبل المدرسة، وعلى أن بيئة التعلم في الروضة التي تأخذ بهذا المنحى هي بيئة مثيرة للطفل أكاديمياً، وتتميز بأنها كذلك بيئة إبداع واستمتاع، وحيث يشعر الأطفال بالراحة والبهجة، ويتمكنون من اللعب، والعمل، والاندماج في أنشطة تساعدهم على التدريب على مهارات حل المشكلات، وعلى الاختيار، وجمع الأشياء وتجميعها في فئات أو مجموعات، واكتساب مفاهيم جديدة، ونقل خبرات تعلمهم إلى مواقف وخبرات أخرى. وفي بيئة تعلم هذا شأنها، يتعلم الأطفال مهارات أساسية من خلال البحث والتقيب والاستكشاف، وكذلك من خلال التعليم المباشر.

## رياض الأطفال : بيئة تعلم إبداعي :

بهذه الرؤى العالمية والعلمية تبرز أهمية التعليم قبل المدرسي بوصفه حاجة مجتمعية ومطلباً نمائياً في المجتمع المعاصر، يتوجهان إلى توظيف الإمكانيات النمائية والاستعدادات الطبيعية المتأصلة في فطرة الطفولة في هذه السنوات المبكرة، وعلى نحو تركز فيه رسالة التربية في الطفولة المبكرة على كشف

المصادر النمائية التي تكتنزها الطفولة المبكرة من الشغف والنشاط والاستكشاف والتجريب والبحث والخيال، وتميئتها من خلال حسن استثمارها في واقع نشاط الطفل دونما إهدار لهذه الذخائر من الطاقات النفسية والإبداعية التي "تعطى مرة لا تتكرر" في مسيرة نمو الشخصية.

يتأتى حسن استثمار مصادر تنمية الطفولة المبكرة من خلال إعداد برامج جيدة لتنمية الطفولة، قوامها تهيئة وتجهيز بيئة تعلم منظم وإبداعي. ويستند تصميم برامج الطفولة المبكرة على التمدرس المبكر، أي على تعليم متميز في سنوات ما قبل المدرسة الابتدائية يؤلف جزءاً عضوياً رئيساً من شجرة التعليم، وهو تعليم قوامه منظومة مفتوحة ومرنة لتعلم إبداعي. وتتحدد القسامات الأساسية التي يقوم عليها تصميم بيئة التعلم الإبداعي وتنظيمه من أجل تعليم متميز قبل مدرسي، فيما يأتي :

(1) التفرد: يُبدي الأطفال في سنوات الطفولة المبكرة معدلات فريدة وفردية في نموهم، لا تتعلق غالباً بالعمر الزمني؛ الأمر الذي يتطلب توفير أنشطة التعلم في تنوع وثراء بما يسمح بتلبية حاجات نموهم وتفردهم.

(2) التلقائية والحرية: ترتقي نزعة الطفل الطبيعية إلى الشغف بالتعلم والحماس للتعلم إذا كانت بيئة الطفل، في الأسرة أو الروضة، مستجيبة ومتقبلة وسمحة، ودافئة بالحب، ومثيية بالتشجيع والاستحسان، وحيث يشعر الأطفال بالحرية في التعبير بتلقائية عن أنفسهم واهتماماتهم، وحيث يكشف الأطفال عن إمكاناتهم الفردية في التعلم والنمو، ويكتشفون تلك المصادر والقوى في أنفسهم، ليتولاها الوالدان والمسؤولون والمربون بالرعاية والتنمية.

(3) الإثراء الحسي: تمثل البيئة مصدراً رئيساً لخبرة التعلم عند الطفل من خلال المدخلات الحسية عن طريق الملاحظة، وتناول الأشياء، وتفحصها واختبارها. أما افتقار الطفل للاستثارة الحسية وتعلمه المباشر من الخبرات الحسية في البيئة، فيعني الحرمان الحسي الذي يؤدي غالباً إلى إفقار التوظيف العقلي المعرفي لديه؛ فالمعرفة تبدأ من الحواس، بقدر ما تمثل الحواس نوافذ للمعرفة.

(4) التعلم عن طريق العمل: فالتعلم هو ما يعمله الأطفال؛ وليس شيئاً نعمله لهم أو من أجلهم. لهذا ينبغي تشجيع الطفل على أن يندمج بشكل مباشر في عمل

التعلم، وأن ينهمك بشغف في أفعال التعلم وأدائه. أما أن نملي التعلم على الطفل أو أن نقول له ما يفعله، فغالبًا ما يفضي إلى لفظية جوفاء.

(5) اللعب أسلوب الطفل في العمل والتعلم : فالطفل يكتسب مهارات كثيرة من خلال اللعب، ويجرب أدوارًا جديدة، ويحل مشكلاته، ويخفف من توتراته وانفعالاته، ويتعلم كيف يستخلص إحساسًا من البيئة ويستجيب لمثيراتها، ويمارس المهارات الاجتماعية.

(6) التعلم من الأقران : فالأطفال يتعلمون خبرات كثيرة بعضهم من بعض، متضمنة تقدير الذات والآخرين، والإحساس بالمسئولية، والإنجاز، وأساليب "تعلم أن يتعلموا"، وتلقي التعزيز من الآخرين؛ وكذلك تكوين الاتجاهات الأساسية نحو المدرسة والمعلمين.

(7) إثراء أنشطة الروضة بتيسيرات التعلم وتنوعها، وبمواد التعلم الحسي العياني في البيئة؛ مما يساعد على تنشيط عملية تعلم الأطفال. فالبيئة حسنة التجهيز والتنظيم هي مَعِين خصب للتعلم، حيث تزود الطفل بالمواد التي يحتاجها للاستكشاف والتعلم.

(8) تعلم مهارات الحياة : يتأتى هذا الشكل من أشكال التعلم في بيئة الروضة عن طريق تكامل خبرات التعلم مع الأنشطة اليومية التي يمارسها الأطفال؛ ذلك أن الحياة طائفة متنوعة من المهارات والأنشطة المتداخلة، وحيث يدرك الأطفال أن المهارات المكتسبة حديثًا تتواءم داخل نطاق أوسع من الخبرات؛ مما ينشط من الدافعية لتعلم تلك المهارات، واختبار فائدتها من خلال ممارسة تلك المهارات في سياقات ومواقف مختلفة، وما يحمله ذلك من التدريب على تعميم تعلم هذه المهارات على المواقف الأخرى. هنا يدرك الأطفال أن تعلم المهارات المدرسية يفيدهم ويساعدهم في حياتهم اليومية، وما في هذا أيضًا من تعزيز لهذه المهارات.

(9) تعزيز مناخ التعلم : تنشط بيئة التعلم وتثرى بتوفير مناخ للتعلم يستند إلى الإحساس بالثقة والنظام والحرية؛ وهو مناخ يشجع الأطفال على المبادرة والاعتماد على الذات. في هذا المناخ يحتاج الأطفال إلى الشعور بالطمأنينة والأمان؛ ولكنهم يحتاجون أيضًا إلى المخاطرة والتحدي في الاستكشاف

وتعرف المجهول والبحث عن الجدة، وإلى المديح والاستحسان وتوقع الإثابة لأفعالهم ولنواتج نشاطهم من خلال تنوع المعززات الموجبة لسلوك التعلم عند الأطفال في سنوات ما قبل المدرسة.

(10) تقدير الذات: إذ تقرر نظريات علم النفس أن أساس الشخصية والصحة النفسية للفرد يتمركز في سنوات ما قبل المدرسة، وأن الفرد يحمل معه طفولته على مدى حياته، فإن الاهتمام بهذا الأساس وحمايته من عوامل سوء التنشئة ورعايته بالتنمية لیتطلب أن تكون الصحة النفسية مدخلاً رئيساً في تصميم برامج التعليم قبل المدرسي وتنظيم خبرات التعلم التي تحقق الغاية من التربية في الطفولة المبكرة، وهي صيانة تلك "الينبوعية" من إمكانات النمو ومصادر التنمية في تلك السنوات التكوينية المهمة من تطور نمو الشخصية، وموالاتها بالتنمية وحسن التوظيف في الجوانب المختلفة من بناء الشخصية. وعليه، فإن برامج رياض الأطفال تعمل وفقاً لموجهات عملية تحقق هذه الغاية، ومن أبرز تلك الموجهات ما يلي :

- أن يشعر الطفل بالحب والدفء بطريقة صادقة وحكيمة.
- أن يدرك الطفل أنه موضع تقدير، وأن ما يقوله ويفعله هو موضع اهتمام.
- أن يخبر الطفل أن ما يصدر عنه من سلوك مرغوب وأفعال طيبة تُلَقَى إثابة وتشجيعاً واستحساناً (التعزيز الموجب) حتى تصبح تلك الأفعال والسلوكيات مثيية ذاتياً (دافعية متأصلة في الذات).
- أن يدرك الطفل بحزم وفهم السلوك غير المقبول والذي لا يلقى استحساناً، أو الذي يلقى عقاباً دون إساءة أو إيذاء للطفل ويكون موجهاً للفعل ذاته وليس إلى الطفل، وأن يتوقع العقاب إذا خرج عن قواعد السلوك المقبول، وأن يعي الأسباب التي دفعته إلى هذا السلوك ومناقشته فيها، والإصغاء لوجهة نظره أو لما يعبر عنه من شكاوي أو انطباعات.
- أن يحدث تفاعل مع الطفل في مواقف كثيرة وبطرق مختلفة.
- أن تُتاح الفرص المناسبة للتعبير عن الذات بأشكال مختلفة - في الأنشطة الفنية والتركيبية واللعب والإيقاع والموسيقى ... إلخ.

• عرض نماذج من الإنجازات الفردية والجماعية للأطفال في أماكن متميزة بالفصل، وتسمية أصحابها، والرجوع إليها، واستخدامها من آخر في تنامي خبرات التعلم عند الأطفال.

• تهيئة الفرص المتنوعة أمام الأطفال كي يتناولوا الأشياء، ويتفحصوها، ويتعرفوا خصائصها واستخداماتها في أغراض وسياقات متنوعة.

• توفير بيئة غنية لغويًا في رياض الأطفال، تسمح بالاستثارة اللغوية والتفاعل اللفظي، وبتمية مهارات التواصل، والإصغاء الجيد، والتعبير الكلامي.

• تشجيع الطفل على التصرف في بعض المواقف اعتمادًا على نفسه، وتعزيز السلوك الاستقلالي.

• تهيئة المواقف والخبرات المتنوعة للتعلم الاجتماعي، حيث يكتسبون المهارات الاجتماعية التي تمكنهم من تكوين صداقات مع أقرانهم، ومن خفض النزعة إلى التمرکز حول الذات، وتقدير الأنشطة التعاونية، والمشاركة في أدوار اللعب والأنشطة الجماعية وغير ذلك من الخبرات التي تساعد على نمو السلوك الاجتماعي عند الأطفال.

وإذا كان الطفل هكذا في مرحلة الطفولة المبكرة هو طفل مبدع، وحيث يكون الإبداع من فطرته، ويعبر عن أصالة وتلقائية تفكيره ووجدانه واستجاباته عامة، أفلا نتدبر كيف تكون لنا أساليبنا وأدواتنا ومهاراتنا في أن نكتشف هذه "المصدرية" الغنية والخصبة من الإبداعية، وكيف نصمم برامجنا ونبني مناهجنا ونختار طرائقنا وأساليبنا كي نفيد وظيفيًا من "ينبوعية" النماء هذه مما يتفرد بها الأطفال في هذه المرحلة خاصة، ونحسن استثمار إمكانات الإبداع وطاقاته التي يعيشها الطفل في واقعه وخياله، وفي عقله ووجدانه، وفي حركته وانطلاقه وطلاقة.

